في النقد الذاتي .. التصوف نموذجًا

على الرغم من أنَّ التصوف الإسلاميَّ نمى ونشأ وترعرع في كنف الإسلام؛ إلا أنَّه تعرَّض كثيرا لحملات النقد والتشوية من قِبَل بعض الاتجاهات الدِّينية المُتشدِّدة حينًا، ومن قِبل أصحاب دعوات التمدُّن والحداثة والتنوير حينا آخر.

ونتيجة لذلك؛ وقر في أذهان الكثيرين أنَّ أذواق الصوفية وأحوالهم ما هي إلا لونٌ من ألوان الهذيان ليس إلا! وأنَّ التصوف الإسلاميَّ مثَّل إحدى الانتكاسات الرَّجعية الكبرى في مسيرة الحضارة الإسلامية!

ضمن هذا السِّياق، يُلخِّص الإمام عبد الحليم محمود (1328- 1398هـ/1910 – 1978)، شيخ الجامع الأزهر، مآخذ المنكرين على التصوف في أربعة مواضع:

أولها: أنَّ بعض الفقهاء يرونه دخيلا على الإسلام، إذ ليس في الإسلام إلا التَّقوى والورع، ونوعٌ من الزُّهد يُشْبِهُ أن يكون عِفَّةً أو قناعة.

ثانيها: أنَّ الأدلة على وجود الله ووحدانيته وقدرته وإرادته موجودة في القرآن الكريم، ولا داعي لالتماسها في متاهات التصوف، فإنَّنا لا نأمن أن نضِلَّ في مجاهل الطريق.

ثالثها: أنَّ التصوف ليس في مُتناول الجميع، فهو إذن (ارستوقراطية) تتنافى مع روح الإسلام (الدِّيمقراطية). ولأنَّ التصوف ليس في مُتناول الناس جميعا، فهو إذن تكليفٌ بما لا يُطاق، والله سبحانه لا يكلِّف نفسا إلا وُسعها.

رابعها: أنَّ التصوف ضعفٌ، والإسلام قوة، والله سبحانه وتعالى يقول: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ﴾.[الأنفال: 60] والجهاد باب من أبواب الإسلام لا يتلاءم مع قيام الليل وصوم النهار.

وأمَّا العقليون؛ فينتقدونه لاحتقاره العقل الذي هو هبة الله والوسيلة الوحيدة للوصول إلى اليقين في محيط ما وراء الطبيعة. وهم يبرهنون على وجود الله – عقليا – ويرون في براهينهم غناء ودقَّة، ويقينا ووضوحا لا لبس فيه.

ويردُّ الإمامُ بأنَّ طريق الصوفية هو البصيرة، الذي سبيله التزكِّي والتطهر، وأنَّ المعرفة الصوفية معرفةٌ إلهاميةٌ، ودليل صحَّتها – كما يقول الإمام محمَّد عبده (ت 1905م)- ظهور الأثر الصالح من الصوفية، وسلامة أعمالهم مما يخالف الشريعة، وطهارة فطرتهم مما يستنكره العقل الصحيح.

وبما أنَّ السبيل الوحيد إلى البصيرة هو "تزكية النفس" التي لا تتوفَّر إلا للصفوة المختارة؛ كان اعتراض الخصوم على التصوف بأنه ارستوقراطي النَّزعة! وهو اعتراضٌ لا قيمة له؛ لأن التصوف في أرستقراطيته ينسجم مع طبيعة الأمور (الإقرار بوجود الاختلاف والتفاوت)، وإذا كانت الدِّيمقراطية معناها: التساوي في كلِّ شيء، فهي إذن أسطورة من الأساطير.

ولو أنَّ هؤلاء جميعا – النقليون والعقليون – التزموا حدود القصْد والاعتدال في أحكامهم، وأنعموا النَّظر في ما أُثر عن المتصوفة من أذواق وأحوال، وما خلَّفوه من آثار وأقوال، ودرسوا هذا كلَّه في ضوء المنهج العلميِّ الصحيح؛ لغيروا رأيهم ولوجدوا في مواجيد الصُّوفية وإشاراتهم وعباراتهم رموزًا لتعبيرات عن حياة روحية راقية، وحالات نفسية رائعة، ومذاهب فلسفيَّة منطوية على كثير من المبادئ والمعاني ليست أقلّ قيمة من المذاهب الفلسفية الخالصة المؤسَّسة على النَّظر العقليِّ والاستدلال المنطقيِّ، ولتبيَّنُوا أنَّ للعاطفة منطقا، كما أنَّ للعقل منطقا كذلك.

صحيحٌ أنَّ الطُّرُقية الصُّوفية قد لحقها العديد من التَّجاوزات الخطيرة التي هي أبعد ما تكون عن جوهر التصوف الإسلاميِّ المنضبط بالكتاب والسُّنة؛ لكنَّ مظاهر الانحطاط التي صاحبت سيادة الطرُق الصوفية على البنية الثقافية الإسلاميَّة لا دخل للتصوف الحقيقيِّ بها؛ فالبدع والخرافات والرقص مجرد عوارض مُصاحبةٌ للجهل وليس للتصوف. كما أنَّ التصوف الحقيقيَّ هو المبحث الأخلاقيُّ لفلسفة المسلمين، وهو مستمدٌ – بطبيعة الحال- من التعاليم القرآنية، وسنَّة النَّبي صلَّى الله عليه وسلَّم، وزهد الصَّحابة والتَّابعين.

فالتصوف في الأساس هو عبارة عن تربيةٌ عمليةٌ للنفوس تقوم على غرس الفضائل، واقتلاع الرذائل، وقمع الشهوات. كما أنه تدريبٌ على الصبر والرضا والطاعات. وهو أيضا عبارة عن مجاهدة النفوس، ومكابدة نزعاتها، ومحاسبة دقيقة لها على أعمالها، وحفظٌ للقلوب عن طوارق الغَفَلات وهواجس الخطرات، وانقطاعٌ عمَّا يعوق السالك في سَيْرِه إلى الله عزَّ وجلَّ، وزهادةٌ في كل ما يُلْهي عن ذكر الله تعالى ويَعْلَقُ بالقلوب سواه. إنَّه علمٌ وحِكمة، وتبصرةٌ وهداية، وتربيةٌ وتهذيب، وعلاجٌ ووقاية، وتقوى واستقامة، وصبرٌ وجهاد، وفرارٌ من فتنة الدُّنيا وزينتها وابتعا.

وطالما أكَّد الصوفية الأوائل على ارتباط تصوفهم بهذا المنزع التربويِّ التَّزكويِّ حين عمِدوا إلى تعريفه بأنّه:

"التصوف خلُق، فمن زاد عليك في الخُلُق، فقد زاد عليك في الصفاء"؛ كما قال أبو بكر الكتَّاني المتوفَّى سنة 233هـ.

"ليس التصوف رسوما، علوما، ولكنه أخلاق. [لأنه] لو كان رسوما، كان يتأتّى بالمجاهدة. ولو كان علوما، كان يُكتسب بالتعليم. لكنّه أخلاق فـ ((تخلّقوا بأخلاق الله)).[الألباني، شرح الطحاوية، رقم 120] والتخلُّق بأخلاق الله لا يتحقَّق بالرُّسوم، ولا بالعلوم"؛ كما قال "أمير القلوب" أبو الحسين النوري المتوفَّى سنة 295هـ.

"التصوف: الدُّخول في كلِّ خُلُق سَنِيٍّ، والخروجُ من كلِّ خُلُق دَنِيٍّ"؛ كما قال أبو محمد الجريري المتوفَّى سنة 311هـ.

كما عمدوا إلى ربط التصوف بالأدب، والذي يمثّل في حقيقته – بحسب القُشيري- : "اجتماع جميع خصال الخير". قيل للحسن البصري: "قد أكثر الناس في علم الأدب، فما أنفعها عاجلا وأوصلها آجلا؟ فقال: التّفقُّه في الدِّين، والزُّهد في الدُّنيا، والمعرفة بما لله عزَّ وجلَّ عليك".

فقد صاغ الصوفية آدابهم بطريقة اعتبروها نموذجا مُعبِّرا عن روح الإسلام، ومن ثمَّ طابقوا سعيهم التَّربويَّ وقواعد سلوكهم الخاصة بصيغ تتجاوب فيها تعاليم الإسلام وقِيمه مع ثلاثية: العلم، والعمل، والحال. فبواسطة الأدب الصُّوفي يتم تحويل القهر الصوفي للنفس، عبر المجاهدة، إلى معلم من معالم الإخلاص القلبي في العبادة والطَّاعة لله عزَّ وجلَّ؛ لأنَّ "حُسْنَ الأدب في الظَّاهر عنوانُ حُسْنِ الأدب في الباطن"، كما أشار إلى ذلك أبو حفص النَّيسابوري في سياق ردِّه على مقولة الجُنَيد البغدادي: "لقد أدَّبْتَ أصحابَك أدبَ السَّلاطين!